إلى إخواننا الأزهريين :

بمناسبة حادث الشيخ أبي العيون

للأستاذ علي الطنطاوي

ما عرفنا علماء الأزهر إلا ملوكا ، لا أمر فوق أمرهم ، ولا كلمة بعد كلمتهم ، إذا قال واحدهم لبّت الأمة ، وإذا دعا هبّ الشعب ، وإذا أنكر على الحكومة منكراً أزالت الحكومة النكر ، وإذا أمرها بمعروف أطاعت بالمعروف ، فكانوا هم السادة وهم القادة ، وهم أولو الأمر : هذي حكومة مصطفى فهمي باشا تستجيب سنة ١٨٩٩ لرغبة الانكليز في إضعاف القضاء الشرعي ، فتضع مشروعها المشهور ؛ لتعديل اللائحة الشرعية وضم اثنين من أعضاء الاستئناف الأهلي إلى المحكمة الشرعية العليا ، ويبلغ من ثقتها بقوتها ، وتأييد مجلس الشورى لها أن لا تبالي باحتجاج الحكومة العثمانية على المشروع ، وتعرضه على المجلس . (وكان من أعضائه الشيخ حسونة النواوي ، الذي جمعت له مشيخة الأزهر وفتوى الديار المصرية) فيقول كلمة موجزة في إنكار المشروع ، وينسحب من المجلس ويتبعه القاضي التركي ، فتكون هذه الكلمة كافية لقتل المشروع ، فيردّ المجلس كله ، وتحاول الحكومة إنفاذه على رغمه فلا تجد عضواً استئنافياً واحداً يقبل الانضمام إلى المحكمة العليا ، (عرضت ذلك على الشيخ محمد عبده وكان من أعضاء الاستئناف الأهلي وسعد زغلول وأحمد عفيفي ويوسف شوقي ويحيى ابراهيم . فأبوا جميعاً) وتمشي كلمة الشيخ في الناس مشي النار في يابس الحطب ، فتهبّ الأمة كلها تؤيده حتى ترضى الحكومة بالهزيمة وتسترد مشروعها[1] .

ولم يكونوا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يخافون غضبة ملك جبار : هذا حسين باشا الجزائرلي ، يصل مصر فيغر منه أمراؤها إلى الوجه القبلي ، فيأخذ أموالهم كلها ولا يرضيه في عتوه وجبروته أن يستولي على عروضهم حتى يسطو على أعراضهم ، فيقبض على نسائهم وأولادهم ، ويسوقهم إلى السوق ليبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، وكانت الأحكام عرفية ، وسيوف الظلم مصلتة ، ولواء البغي مرفوعاً ، ولكن ذلك لم يمنع علماء الأزهر من إنكار هذا النكر ، ولم يرهبوا بطش الباشا وهم يرون أن أفضل الشهداء رجل قال كلمة حق عند إمام جائر فقتله بها ، فمضوا إليه وتكلم الشيخ محمد أبو الأنوار فقال له : « أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أوليبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟» فقال : « هؤلاء أرقاء لبيت المال » . قال : « هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب أشد الغضب وطلب كاتب ديوانه ، وقال : « اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره» فقال له الشيخ محمود البنوفري : « اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا[2] » ، وكانت النصرة لهم عليه ، فأحقوا الحق وأبطلوا الباطل ، ووضع الله في قلبه هيبتهم ، لأن من خاف الله خافه كل شيء . فكانوا بذلك (أجل من الملوك جلالة[3]) ،

(وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً) ويقول (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . وبما أن هذه الدعوة هي رسالة الوعظ فحبذا لو ذللت سبل الانتقال لحضرات الوعاظ ليتمكنوا من كثرة التردد على البلاد التي تقع في دائرة عملهم وليتيسر لهم أداء رسالتهم على الوجه الأكمل . وحبذا لو عنى كذلك خطباء المساجد بمعالجة العادات السيئة والمنكرات الشائعة والجرائم المنتشرة في دائرة عملهم بما يلائم روح العصر وتطورات الزمن بعبارة سهلة مفهومة لعامة الشعب بالحث على التمسك بالدين وغرس صفات الرفق بالضعيف وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والتحذير من الكذب وشهادة الزور والترغيب في أداء الشهادة والصدق وما إلى ذلك من الفضائل . والمأمول أن يتم على أيديهم جميعاً تحقيق رسالتهم على أكمل وجه فيساعدون على استتباب الأمن وإسعاد البشر .

(البقية في العدد القادم)

علي ملحمي
مدير جرجا

(١) عن كتاب الأستاذ محمد فرج السنهوري .
(٢) القصة في الجبرتي ٣ - ٢٠١
(٣) شوقي .

وكانت إشارتهم للحكام أمراً ، وطاعتهم عليهم فرضاً ، حدّث الشيخ محمد سليمان[1] أن أباه قدم لطلب العلم فى الأزهر ، أواخر أيام الشيخ إبراهيم البيجورى ، فشكا إليه ظلم تلك الأيام ، وما كان فيها من السخرة والعونة فكتب له ورقة بمساحة إصبعين هذا نص ما كان فيها : « ولدنا مدير الدقهلية . رافعه من طلبة العلم يجب إكرامه. خادم العلم والفقراء. الخاتم (ابراهيم البيجورى) » فدفعها إلى المدير ، فقبلها ووضعها على رأسه ، ودفعت عنه هذه الورقة كل مظلمة ، وأنالته كل مكرمة ، ورفعت قدره عند المدير وعند الناس .

وكان الشيخ الأزهرى موقراً فى الجامع وفى البيت وفى السوق ، مبجلا عند الطلبة والعامة والحكام ، وكان أقصى أمل الطالب أن يخدم الشيخ وأن يحمل له نعله ، وإذا سبّه عدّ سبه إكراماً ، وتحمله مسروراً ، ورآه من أسباب الفتوح .

وكان الطالب الأزهرى المجاور ، يذهب إلى بلده فى العيد أو فى الإجازة ، فيقبل البلد كله عليه يقبل يده ، ويتبرك به ، ويشم فيه عبق الأزهر ، ويكون المرجع لأهله فى الجليل من شؤونهم والحقير ، ويكون فقيههم والحاكم بينهم ، لا مردّ لحكمه ولا اعتراض عليه ، لأنه يحكم بشرع الله ، ويبين حكمه فى فتواه

هذا ما عرفناه . فما الذى جرى حتى تبدلت الحال ، ووقع حادث الشيخ أبى العيون ؟

ما الذى نزع هيبة المشايخ من القلوب وأزلهم من مكانتهم عند الحكام ؟

أأقول ؟ أنتم أيها الأزهريون فعلتم هذا كله ! أنتم تنكبتم سبيل أسلافكم ، فما الشيخ اليوم شيخ مسلّك ولكنه موظف محاضر ، وما التلميذ مريد طيّع ، ولكنه على النائب مشاغب ، وما يطلب علماً ولكن يبتغى شهادة . أنتم ثرتم على مشايخكم وعلمتم الناس الثورة عليهم . أنتم أيها الطلاب . أنتم مددتم أيديكم إلى مدرسيكم ، فجرأتم هؤلاء أن يمدوا أيديهم إلى أبى العيون . أنتم أطلقتم ألسنتكم فيهم فشجعتم هذه الصحف أن تتطاول حزبية إلى الكلام على شيخ الأزهر . أنتم أيها الأزهريون جميعاً جعلتموها جامعة فكان فيها ما يكون فى الجامعات ، وقد كانت جامعاً لا يكون فيه إلا ما يكون فى الجامع . لقد كان الأزهر لله فصار للناس ، وكان للآخرة فغدا للدنيا ، وكان يجيئه الطالب يبتغى العلم وحده ، يتبلغ بخبز الجراية ، وينام على حصير الرواق ، ويقرأ على سراج الزيت ، ولكنه لا ينقطع عن الدرس والتحصيل من مطلع الفجر إلى ما بعد العشاء ، ينتقل من شيخ إلى شيخ ، ففى كل ساعة درس ، ولكل درس كتاب ، ولكل كتاب ساعة للتحضير والمراجعة ، لا يدع الدرس إلا للصلاة فى المسجد صلاة خشوع وتبتل ، أو للأكل فيه أكل قناعة وتقشف ، أو لشرب المرقسوس أو الخرنوب . هذه ملذاتهم من دنياهم ، لا يخرجون من المسجد إلا عصر الخميس ، يؤمون الرياض والحياض ، للاستجمام والاستحمام ، لا يأملون من العلم مالا وقد كان أقصى مرتب الشيخ الأزهرى إلى عهد قريب ثلاثة جنيهات فى الشهر ، ولا يبلغها إلا نفر قليل ، فراضوا نفوسهم على القناعة ، وعودوها الصبر وألزموها الرضا. هذا المرصفى يحدّث عنه الأستاذ محمود حسن زناتى أنه كان فى دار بالية فى حى قديم وقد جلس على حصير ألقى عليه كتبه وأوراقه ، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يدرأ عنه هجوم البق[1] لم يمنعه هذا الحصير الخلق فى هذه الدار البالية من أن يشرح عليه الكامل . وأورثهم هذا الفقر عزة فى نفوسهم : أورثهم كبر العلم ، وكل كبر مذموم إلا كبر العلم ، فلم يكونوا يحفلون أحداً من أبناء الدنيا ، لأنهم لم يتذوقوا لذتها حتى يداجوا فيها ، ولم يميلوا إليها حتى يتزلفوا إليهم من أجلها . كسروا قيودها وتخلصوا من رقها ، وهانت عليهم وهان أهلها . هذا هو اللورد كرومر ، وما أدراك ما اللورد كرومر ؟ ! يدخل على الشيخ محمد الانبابى شيخ الأزهر ، ويسلم عليه ؛ فيرد الشيخ التحية وهو قاعد ، فيعظم اللورد قعوده ويقعد إلى جنبه فيقول له مغضباً : « يا سيدنا الشيخ ألست تقوم للخديو ؟ » قال : « نعم » . قال : « فلم لم تقم لى ؟ » قال : « إن الخديو ولى الأمر وأما أنت فلست منا » . فيزيد ذلك اللورد إجلالا له ، ويكتبه فى أحد تقريراته لحكومته[1] .

وهذا هو رياض باشا وكان رئيس الحكومة وناظر المالية

(١) فى كتابه الجليل (من أخلاق العلماء) .

(١) من أخلاق العلماء .

يزور مدرسة دار العلوم ، وكان الشيخ حسن الطويل مدرساً فيها ، فلا يسلم الرئيس ويدخل ؛ حتى يبتدره الشيخ من آخر القاعة ، فيقول له : « يا باشا أما آن لكم أن تجعلوني معكم ناظراً ؟ » . فيدهش الباشا ويقول : « ما هذا يا شيخ حسن؟ » فيقول : « ما تسمع يا باشا ؟ » قال : « فأى نظارة تريد ؟ » قال : « المالية » قال :« لماذا ؟ » قال : «لأستبيح أموالها![1]» فذعر الباشا وخرج يرتجف ، وقال لعلى مبارك باشا ناظر المعارف : « لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة » قال : « كيف ؟ وماذا أصنع مع علماء الأزهر ، وهو عالم عالمى؟ [2] ».

كذلك كانوا . زهدوا فى الدنيا فجاءتهم الدنيا ، وأعرضوا عنها فأقبلت عليهم ، وهابوا الله فهابهم الناس ، فكيف حالكم اليوم يا إخواننا الأزهريين ؟

* * *

يا إخواننا ، إن هذا الأزهر المعمور ، لبث خمسمائة سنة من عمره ، وهو منار العلم المفرد فى الدنيا لولاه لتاهت فى ظلمات الجهل ، وهو حارس الدين واللغة ، فأدركوه لا ينطفئ المنار ، ويهجع الحارس ، وتترك الدنيا للظلام وللصوص .

يا إخواننا ، ما عاش الأزهر ولا عز بالعلم وحده ، وما العلم بلا عمل ؟ ولكن عز بالتقوى وبالعمل وبالخلق المتين . لقد كانت لعلماء الأزهر أخلاق لا أقول ضاعت ولكن اختفت عن الناس تلك الأخلاق ، كانوا يجلون مشايخهم فيجلهم الناس كلهم . هذا هو الشيخ الباجورى شيخ الجامع كان يجلس بعد المغرب فى الصحن فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده ، وكان الشيخ مصطفى البلط وهو أكبر منه ، ناظره فى طلب المشيخة ولم ينلها ، يندس فيهم ويقبل يد الشيخ ، فانتبه إليه مرة فأمسك به وبكى وقال : « حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا . لا » فقال الشيخ مصطفى : « نعم . وأنا ! لقد خصك الله بفضل وجب أن نقره ، وصرت شيخنا فعلينا أن نوقرك[2] » ، وكانوا يقدمون العلم على المنصب ، ويعرفون لأهله حقهم . هذا هو الشيخ الشربينى شيخ الجامع يجىء إلى الشيخ الأشمونى فيراه مضطجعاً على جنبه فيضع حذاءه بعيداً ويقبل عليه على مشهد من أهل الجامع حتى يلثم يده . وكان الأشمونى ربما قال له : « إزّيك يا عبد الرحمن ؟ » فيكون الشيخ كأنما حيّته من فرحته بذلك اللائكة[1] ، ولم يكونوا يدعون للمدو ثغرة يدخل منها إليهم ، ويجعلون خلافهم إذا اختلفوا ، بينهم ، هذا هو الشيخ الأمير كانت بينه وبين الشيخ القويسنى جفوة بلغت الحاكم ، وزاره الأمير فسأله عنها ، وأوهمه أن القويسنى أخبره بها وكان يريد معرفة حقيقتها ليزيلها . فقال الشيخ الأمير : « ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسنى حدثك بشىء من هذا » وأثنى عليه ومدحه ونزل من عند الحاكم فر به على ما كان بينهما ، وأنبأه بما كان ، فقال القويسنى : « صدقت فى ظنك ما قلت للحاكم شيئاً » قال الشيخ الأمير : « هكذا أهل العلم يسوون أمورهم بينهم ، أما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة فى التآلف إمساكا على عروة الإسلام ، وحفظاً لكرامة العلم ، وزال بذلك ما كان بينهما[1] » .

* * *

فيا إخواننا الأزهريين ، سألتكم بالله ، ارجعوا بالأزهر إلى سبيله التى درج عليها . أعيدوه سنته الأولى . أفيضوا عليه الدين والتقوى ، فالتقوى روح العلم ، فإن فارقته كان جسما بلا روح . أحيوا فيه أخلاق الأسلاف ليكن لكم تفاهم وزهدهم ، فتكون لكم عزتهم ومكانتهم . يا إخواننا ، لم نجد والله خيراً فى الجامعة الأزهرية ، فردوا علينا الجامع الأزهر !

على الطنطاوى

(١) من أخلاق العلماء .

(١) تعريبنا برياش باشا . (٢) من أخلاق العلماء .

صدر حديثاً : فى فلسطين :

كتاب

التطور الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين العربية

تأليف محمد يونس الحسينى

يبحث فى وصف بيت المقدس وفتح العرب للقدس وعهد دول الإسلام والشئون الاجتماعية وطرق المواصلات . الخ

الناشر : مكتبة الطاهر إخوان بيافا الثمن ٣٠٠ ملا